نموًّا وانتشارًا حتَّى ملأت المكان الذي كانت فيهِ ثم اخذت تنحط عن عظمها رويدًا رويدًا فقلَّ عدد افرادها ولم تعد تبني اسرابها ولا تصلحها اذا تخرَّبت. ولم يكن ذلك لان عدوًّا اعتدى عليها ولا لان الرزق قلَّ من امامها. وكان قد اشتق منها نحلة انشأت قريةً في مكان آخر فاخذت تنمو وتكثر حتَّى امتلكت الناحية التي كانت فيها وقامت مقام القرية الاولى ولعلَّ سبب ذلك ان للجماعات عمرًا محدودًا كما للافراد فعاشت هذه الجماعة عمرها واخلفت النحلة التي اشتقَّت منها ثم تولَّاها الضعف والانحطاط كما يتولَّى كلَّ حي. وذكر الكاتب سلاتر انهُ رأى شجرة تسمَّى شجرة الغربان كانت الغربان تعشش فيها بكثرة فكان يرى فيها عشرون عشًّا او اكثر او اقل ثم اخذ عدد العشاش يقل رويدًا رويدًا حتَّى لم يبقَ فيها الَّا عشَّان وذلك لان فراخ الغربان هاجرت منها الى شجرة أخرى تبعد عنها نحو ميل خارج المدينة لغير سبب ظاهر

هذا ولا يزال البحث في طبائع الحيوانات قاصرًا عن تعليل كل ما يبدو منها من الاعمال الغريبة

طرق التحيَّة واسبابها

اذا طالعت باب المسائل في المقتطف رأيت فيهِ لاوَّل وهلة ان العقل منظور على البحث والاستقصاء فيحسب لكل معلول علة ولكل شيء اصلًا ويود ان يعرف تلك العلَّة ويطَّلع على ذلك الاصل. ومن الامور ما يمكن معرفة علتهِ وردهُ الى اصلهِ على اسهل سبيل إما لانهُ حدث حينما كان الناس ينتبهون الى ما يحدث امامهم ويثبتون حدوثهُ في بطون التاريخ او لان علاقة العلَّة بالمعلول ظاهرة واضحة ترى لاقل بحث. ومنها ما يعسر ردهُ الى اصلهِ لحدوثهِ قبل زمن التاريخ او لانفصال العلَّة عن المعلول وخفاء العلاقة بينهما او لغير ذلك من الاسباب. وشأن العلماء في عصرنا جمع الحوادث وترتيبها وتقسيمها الى اجناسها وانواعها وفصولها والبحث عن اسبابها وقد انقسموا الى طوائف بحسب مواضيع البحث واصلوا السعي والجد ولم يتركوا شاردةً ولا واردةً فترى صفحات المقتطف اكبر دليل على ذلك فانها شاهدة بما يبذلهُ العلماء من السعي وما يجشمونهُ من المشاق فهذا يسافر اربعة آلاف ميل ليعلم سبب اتجاه الهياكل المصريَّة القديمة الى نقطة بين الشمال والغرب وذلك يطوف بلدان المشرق والمغرب يجمع شقف الخزف ليستدل منها على من استنبط الدهان

اولاً وذلك يجوب بلدان المتوحشين ليبحث في عوائدهم واخلاقهم وغيرهم يبحثون عن علة كل ظاهرة فلكيَّة وجويَّة وطبيعيَّة وكيماويَّة وكل حادثة عقليَّة او ادبيَّة

وما استقصوا شواردهُ وبحثوا فيهِ عساهم ان يهتدوا الى اصلو طرق التحيَّة فلا يخفى ان الناس يستعملون في التحيَّة عبارات مختلفة واشارات متنوعة ولكلٍّ منها اساليب شتَّى

والاشارات اما ان تكون مباشرة اي ان المحيي يباشر المحيا كالمصافحة والمعانقة واما ان تكون غير مباشرة كالجثو والطأطأة . والاشارات المباشرة اما ان يُستعمَل فيها اللمس او الشم او الذوق فمن الاولى اي التي يستعمل فيها اللمس المصافحة وهي في الاصل الصاق صفح الكف بالكف واقبال الوجه على الوجه والمعانقة وهي ان يضع الرجل يدهُ على عنق صاحبهِ ويضمهُ الى نفسهِ . والتربيت اي الضرب الخفيف او الدلك . فاهالي جزائر مريانا يحيي احدهم الآخر بلطم بطنهِ وذلك شائع عند غيرهم من الشعوب من الدائرة الشماليَّة الى جزائر المحيط كانهم يريدون تمديد البطن لازالة المل او لتسهيل هضم الطعام فيهِ وغيرهم يحيون بعضهم بعضاً بضرب اكتافهم او ظهورهم ولعلَّ التطبيج (التطبيش) عندنا من هذا القبيل

ومنهم من يحيي غيرهُ بجذب اذنهِ . وفي كثير من البلاد الحارَّة يحيي الرجل صاحبهُ بمسح جبينهِ بالماء او برش الماء عليهِ ويقول احدهم للآخر عند التحيَّة عساك تبرد . وبعضهم ينفخ على اذن صاحبهِ . واساليب العناق في مصر والشام والعراق ونجد والحجاز واليمن كثيرة مختلفة والغالب فيها ان يقبل الرجل كتف صاحبهِ او يتظاهر بتقبيلهِ . والتقبيل الصحيح في هذه البلدان غير كثير والغالب انهُ محدَث

واذا رجع واحد من قبيلة الابنو من سفر سلَّم على الاحداث الذين يقبلونهُ يوضع يديهِ على رؤوسهم وجرّها على اكتافهم فأيديهم الى ان يصل الى اطراف اصابعهم كانهُ يحاول تنويمهم بالنوم المغنطيسي . وكثيرون من الناس يكتفون بالاشارة من بعيد وقت التسليم ويستعيضون عن لمس من يطارحونهُ السلام بلمس ابدانهم فيفرك الواحد منهم وجههُ او انفهُ عوضاً عن ان يفرك وجه صاحبهِ او انفهُ ويفرك معدتهُ عوضاً عن ان يفرك معدة صاحبهِ . ومعلوم ان من طرق التحيَّة التي لم تزل شائعة عندنا وضع اليد على الصدر فقد تكون هذه الاشارة مبدلة من وضع الرجل يدهُ على صدر صاحبهِ وقد يكون المراد منها الدلالة على القلب مصدر المحبة في اعتقاد الجمهور . اما مطارحة السلام بخلط اليد الى قرب الارض ووضعها على الفم ثم على الرأس فالظاهر انها اكتفاء من اخذ ذيل المحيَّ وتقبيلهِ ووضعهِ على الرأس لان تقبيل الذيل لم يزل شائعاً حتَّى يومنا هذا

اما المصافحة بهز الايدي فعادة محدثة وقد ظن الفيلسوف هربرت سبنسر ان اصلها محاولة كلّ من المتصافحين ان يأخذ بد صاحبه ويقبلها ويؤيد ذلك ان الذين كانوا يقبلون ايدي من هم اكبر منهم سنًّا او شأنًا ثم ابطلوا هذه العادة وصاروا يهزّون ايديهم هزًّا تدرّجوا الى ذلك تدريجًا من اخذ اليد وتقبيلها الى جذبها وادنائها من الفم الى الاكتفاء بهزها . ويمكن ان يرد على ذلك ان المصافحة قديمة عند العرب ولا شيء فيها من الجذب والهزّ وكذلك المصافحة الشائعة عند السودانيين والبرابرة وهي قبض اليد باليد ونقل الانامل من اسفل ظاهر الكف الى اعلاهُ تباعًا . والظاهر ان الغرض منها مجرّد اللمس كأنّ الصاحبين يكتفيان بما من ضم احدهما الآخر الى صدره ويؤيد ذلك ان اهالي بعض الاصقاع يتخذون المصافحة دليلاً على عقد الزواج او على المصادقة والمصافاة وعنود شمالي اميركا وكثيرون غيرهم يتخذون المصافحة دليلاً على الصلح والسلام وكان ذلك معروفًا عند غيرهم من ايام الرومانيين القدماء الذين اوجبوا على المتخاصمين ان يمسك كلٌّ منهما بيمين صاحبه قبل ان يقصّ دعواها تعهُّدًا منهما بالصدق في ما يقصانه . قيل وسبّي الحلف يمينًا في العربيّة لانهم كانوا اذا تحالفوا او تعاهدوا ضرب كلٌّ واحد يمينهُ على يمين صاحبه

والبعض يشبون اصابعهم عند التحيّة ويضع الواحد منهم يدهُ بيد صاحبه فتعلق اصابعهُ باصابعه ويجذب احدهما الآخر حتّى تتقرقع اصابعهم ولعل المراد بذلك ان يتمتّع السمع بالصوت كما تتمتّع اليد باللمس

والشم مستعمل في التحيّة من قديم الزمان وامرهُ مشهور في التحياوات فانها تتشامّ عند التلاقي . وقد ضعفت حاسة الشم كثيرًا عند اهالي اوربا واميركا ومن جاراهم لاكثارهم من استعمال التبغ واما غيرهم من اهالي اسيا وافريقية واميركا فلم تزل حاسّة الشم قويّة فيهم ويقال انهُ اذا جاء زائر الى بيت رجل كبير في بلاد سيام خرج خادم الرجل وشمّ رائحة الزائر فاذا وجدَ ان معهُ شيئًا رائحتهُ خبيثة منعهُ عن الدخول . وعنود اميركا يغتسلون ويغسلون بيوتهم قبل دخول الضيوف اليها لئلاّ تشم منها رائحة غير طيبة ويفعلون مثل ذلك قبل القيام بالاحتفالات الدينيّة

والتسليم بالانوف شائع في جزيرة زيلندا الجديدة وجزائر تونغا وتهيتي وتنغا وهواي وفي اواسط افريقية ايضًا وهو بتوم بان يشم الرجل صاحبهُ والغالب ان الصديق يطيل شم صديقهِ ثم يبديان علامات الاستحباب والرضى . والفلوق من سكان سيبيريا يركعون على ركبهم ويشمّ بعضهم بعضًا . والشمّ محصور بين الاكفاء من اهالي جزائر الملاحة واذا التقى وضيع

بعظيم منهم اكتفي الوضيع بفرك انفهِ وثم يد العظيم . واهالي جزائر فيجي يثم الوضيع منهم يد الرفيع لا غير واهالي غمبيا يجبي رجالهم نساءهم بثم ايديهنَّ . واهالي جزائر الاصدقاء يتشامون بان يفرك الواحد منهم انفهُ بانف صاحبهِ واذا اراد احد ان يكرم صاحبهُ اخذ يدهِ وفرك بها انفهُ وفمهُ . واهالي جزائر مريانا يثمون يد من يريدون اكرامهُ . واهالي جزائر صندويج يجبي بعضهم بعضًا بفرك انفهِ . وبعض اهالي انام يكتفون بالثم عن التحيَّة ويقول احدهم للاخر دعني اشمك بدل دعني اقبالك . وكذلك بعض اهالي الهند يثم بعضهم خدود البعض عند التحيَّة والزوني يثم بعضهم ايدي بعض بدل تقبيلها ويعبرون عن ذلك بقولهم انهم يتبادلون نَفَس الحياة

والذوق يتلو الثم ويدخل تحت التقبيل . وكان التقبيل شائعًا من قديم الزمان بين الرجال كما يظهر من تقبيل كورش لجدهِ . وقد حاول بعضهم تعليلهُ بردهِ الى لحس الحيوانات بعضها بعضًا وردَّ عليهم بانهُ غير شائع في اقطار المسكونة كما يظن لاول وهلة واكثر الشعوب التي تستعملهُ الآن لم تكن تستعملهُ في قديم الزمان وليس لهُ كلمة خاصة في بعض اللغات كاللغة اليابانيَّة . ولعلَّ كلمة لَثَمَ في العربية من اللثم اي الانف وقبَّل من وضع الشيء قبالة الوجه لا غير . وقد شاع التقبيل في اوربا مرة حتَّى صار الزائر يقبل كل نساء البيت الذي يزورهُ ولو كان غريبًا عنهنَّ

ولثم اليد قديم جدًّا ولعلَّهُ اقدم من لثم الوجه واللثم ويقال ان القِسِّ شرعوا اولاً في تقبيل الارض يقبلها الوضيع امام الرفيع ثم بتقبيل القدمين ثم بتقبيل الابهال وتدرجوا الى تقبيل اليدين فالوجه ولكن ذلك غير مطلق لان هذا الترتيب قد ينعكس . وذكر لثم اليدين في التوراة وذكرهُ هوميروس وبلينوس وغيرهما من الكتَّاب

وكان الرومانيون يقبلون ايدي ملوكهم ثم استقبل القياصرة ذلك فصارت الرعيَّة تركع امامهم وتلثم اذيال اثوابهم . ثم عزَّ ذلك على الرعيَّة ولم يعد يباح الاَّ للمقرَّبين منهم وصار الباقون يركعون عن بعد ويقبل الواحد منهم يدهُ . ولم يزل شائعًا في كثير من بلاد المشرق الى يومنا هذا ومنهُ وضع انامل باطن اليد على الفم ثم على الرأس

ومعلوم ان الانسان يستعمل ذوقهُ للحكم على جودة اشياء كثيرة او عدم جودتها فكأنهُ استعمل اللثم دليلاً على انهُ ذاق الشخص الذي امامهُ فحكم بجودتهِ ويدلُّ على ذلك انهُ ينحني رأسهُ بعد ذلك وحنو الرأس الى الامام علامة الايجاب والقبول فكأن من يلثم يد صاحبهِ ويحني لهُ رأسهُ كمن يقول لهُ قد ذقتك فوجدتك صالحًا . وسيأتي الكلام على الاشارات غير المباشرة في فرصة أخرى